

تكوين الفكر العربي قبل الإسلام (3)

الدكتور رشاد محمد خليل

الطبيعة (وهكذا . . . وليس معنى هذا اننا نريد ان ننشئ علما عربيا في هذه الابواب ذلك ان المادة العلمية التي سنعثر عليها مهما بلغت لا يساوى شيئا بجانب هذا الانقلاب الهائل الذي حققه العلم الحديث ولكن اهمية هذا التصنيف هو اعادة دراسة الفكر العربي دراسة علمية موضوعية على اساس من مناهج مقرررة لتحديد مكانته التاريخية ولكشف أسلوبه في النظر والتفكير وفهم الوجود المحيط بها ، وعرض هذا الفكر بصورته الجديدة والمدرسة على الاجيال العربية التي تجهل هذا الفكر جهلا تاما بل والتي لا تعرف ولا تتصور انه قد كان للعرب قبل الاسلام فكر وعلم على الاطلاق ثم لعرض هذه الصورة على العالم ليصبح موقفه من الفكر العربي وليصبح تاريخه للحضارة والعلوم الانسانية لان جميع الذين ارخوا للفكر الانساني وعلومه لم يضعوا في اعتبارهم قط احتمال ان يكون للعرب قبل الاسلام علم وفكر على الاطلاق والذي يلقي نظرة على اى موسوعة تؤرخ لتاريخ الفكر وعلومه لن يخرج بغير هذه النتيجة ، ان الفكر العلمى بالمعنى الصحيح تراث يونانى نقله المسلمون الى اوربا .

يلحق بفصل التجريد والمجاز موضوع هو ثمرة من ثمرات التجريد والمجاز وهو موضوع كان يسمى قديما فقه اللغة وهو شئ آخر غير فقه اللغة في الدراسات اللغوية الحديثة وقد جمع بعض علماء اللغة قديما تحت عنوان (فقه اللغة) مادة لغوية رتبوها ترتيبا خاصا اطلق عليه ابو منصور الثعالبي اسم فقه اللغة وهذا الموضوع على جانب كبير من الاهمية وان كان اللغويون انفسهم لم يجمعوا هذه المادة على اساس علمى وانما جمعوها ورتبوها على اساس لغوى صرف مما جعلها في الغالب ناقصة ومبتورة ومشوهة ولكنه رغم القصور الذى في هذه المادة فهى تفتت نظرنا الى القيمة العلمية للمادة اللغوية الموجودة في بطون المعاجم والى ضرورة محاولة الاستفادة منها باعادة ترتيبها ترتيبا يهتم باستخلاص المادة العلمية منها وذلك بجمع كل المادة التى تتعلق بموضوع واحد في باب خاص بها ثم الابواب التى تنتمى لعلم واحد تحت باب عام خاص بها اى ان جميع المادة الخاصة بعلوم الحيوان مثلا تحت (علم الحيوان) وجميع المادة الخاصة بالنباتات تحت (علم النبات) وجميع المادة الخاصة بالطبيعة تحت (علم

كتب فقه اللغة :

من هذه الكتب التي تخصصت في موضوعات بعينها

كتب الأبل لأبي حاتم السجستاني (— — 248)
وللاصمعي (122 — 216) ، ولأبي عبيدة (110 —
206) ، وللنضر بن شميل (122 — 203) ، ولأبي
زياد الكلابي ، ولأحمد بن حاتم الباهلي (— — 231) .

كتب الخيل لابن قتيبة (213 — 276) وابن
الاعرابي (150 — 231) ، وأبي عبيدة ، وأبي جعفر
محمد بن حبيب البغدادي (— — 245) ، وأبي محم
محمد بن هشام الشيباني (— — 245) ، ولأحمد
ابن حاتم .

وكتب الغنم والشاة لأبي الحسن الأخفش (—
— 215) ، وللنضر بن شميل وللاصمعي .

وكتب الوحوش للاصمعي ، ولأبي زيد (119 —
215) ، ولأبي حاتم السجستاني .

وكتب الطير لأبي حاتم السجستاني ، والنضر بن
شميل ، وأحمد بن حاتم الباهلي .

وكتب البازي والحمام والحيات والعقارب لأبي
عبيدة .

• **وكتاب الفرس** للاصمعي .

وكتاب النحل والحشرات لأبي حاتم السجستاني :

• **وكتاب النحل والعسل** للاصمعي (1) .

والذي يستلفت النظر أن هذا النوع من التصنيف
رغم قصوره يضع تحت أيدينا مادة خصبة لدراسة
أسلوب العرب في تتبع مختلف الظواهر التي عرفوها
وفي ملاحظتها وترتيبها وتصنيفها .

وقد جمع أبو منصور هذه الظواهر في ثلاثين
بابا كل باب مقسم إلى عدة فصول تتراوح بين ثلاث
فصول وستة وستين فصلا في الباب الواحد .

وقد رتب أبو منصور أبوابه على الوجه الآتي :

الباب الأول : في الكليات وفيه أربعة عشر فصلا .

الباب الثاني : في التنزيل والتثيل وفيه خمسة فصول .

الباب الثالث : في الأشياء وتختلف أسماؤها وأوصافها
باختلاف أحوالها وفيه ثلاثة فصول .

الباب الرابع : في أوائل الأشياء وأواخرها وفيه ثلاثا
فصول .

الباب الخامس : في صفات الأشياء وكبارها وعظامها
وضخامها وفيه عشرة فصول .

الباب السادس : في الطول والقصر وفيه أربعة فصول .

الباب السابع : في اليبس واللين والرطوبة وفيه
أربعة فصول .

الباب الثامن : في الشدة والشديد من الأشياء وفيه
أربعة فصول .

الباب التاسع : في الكثرة والقلة وفيه ثمانية فصول .

الباب العاشر : في سائر الأوصاف والأحوال المتضادة
وفيه سبعة وثلاثون فصلا .

الباب الحادي عشر : في الملاء والامتلاء والصفورة والخلاء
وفيه عشرة فصول .

الباب الثاني عشر : في الشيء بين الشئيين وفيه ستة
فصول .

الباب الثالث عشر : في ضروب الألوان والآثار وفيه
تسعة وعشرون فصلا .

الباب الرابع عشر : في أسنان الناس والدواب وتنقل
الحالات بها وفيه سبعة عشر فصلا .

الباب الخامس عشر : في الأصول والأعضاء والرؤوس
والأطراف وأوصافها وما يتولد منها ويتصل بها ويفكر
منها وفيه ستة وستون فصلا .

الباب السادس عشر : في الأمراض والأدواء وما يتلوهما
وما يتعلق بها وفيه أربعة وعشرون فصلا .

(1) مقدمة كتاب الحيوان للجاحظ ج 1 ص 14 — 16 نقلا عن وفيات الأعيان لابن خلكان وبغية الوعاة
للسيوطي ونزهة الألباء وفهرس بن النديم وكشف الظنون ومعجم الأدياء .

الباب السابع عشر : في ضروب الحيوانات وأوصافها
وفيه تسعة وثلاثون فصلا .

الباب الثامن عشر : في الاحوال والاعمال الحيوانية وفيه
سبعة وعشرون فصلا .

الباب التاسع عشر : في الحركات والاشكال والهيئات
وضروب الضرب والرمى وفيه أربعون فصلا .

الباب العشرون : في الاصوات وحكاياتها وفيه ثلاثة
وعشرون فصلا .

الباب الحادى والعشرين : في الجماعات وفيه أربعة
عشر فصلا .

الباب الثانى والعشرين : في القطع او الانقطاع والقطع
وما يقاربها من الشق والكسر وما يتصل بهما وفيه
سبعة وعشرون فصلا .

الباب الثالث والعشرين : في اللباس وما يتصل به
والسلاح وما ينضاف اليه وسائر الآلات والادوات وما
ياخذ مأخذها وفيه تسعة وأربعون فصلا .

الباب الرابع والعشرين : في الاطعمة والاشربة وما
يناسبها وفيه سبعة عشر فصلا .

الباب الخامس والعشرين : في الآثار العلوية وما يتلو
الامطار من ذكر المياه وأماكنها وفيه ثمانية عشر فصلا .

الباب السادس والعشرون : في الارضين والرمال
والجبال والاماكن والمواضع وما يتصل بها وفيه سبعة
عشر فصلا .

الباب السابع والعشرون : في الحجارة وفيه ثلاثة
فصول .

الباب الثامن والعشرون : في النبات والزرع والفصل
وفيه سبعة فصول .

الباب التاسع والعشرون : في ما يجرى مجرى الموازنة
بين العربية والفارسية وفيه خمسة فصول .

الباب الثلاثون : في فنون مختلفة الترتيب من الاسماء
والاعمال والافصاف وفيه تسعة وعشرون فصلا .

وقد فعل الاسكافي شيئا قريبا من هذا في كتاب
مبادئ اللغة وان كان لم يقسم ابوابه الى فصول كما
فعل الثعالبي وكذلك فعل ابن سيده في كتابه المخصص
وقد قام باعادة ترتيبه وتنسيق مادته بعد الاستعانة
بالقاموس المحيط وفقه اللغة والمصباح واللسان
والاساس وغيرها من كتب اللغة — عبد الفتاح
الصعيدى وحسين يوسف موسى في كتاب الانصاح .

ونخرج من هذه التصنيفات بأن العرب قد لاحظوا كثرة
الظواهر التى وقعت تحت ملاحظتهم — حسية كانت او
معنوية — وحصروها ورصدوها فى مختلف احوالها
ومن مختلف جوانبها .

اما من ناحية العموم والشمول كالكليات من سماء
وارض وحيوان ونبات . . الخ او من ناحية اختلاف
الاحوال واختلاف الاسماء والصفات باختلافها كأن
يقال : كاس اذا كان يشرب فيها والا فهى زجاجة .

وكان يقال : الصبح فى أول النهار والغسق فى أول
الليل وذلك فى اليوم الواحد .

او من ناحية الحجم كالكبر والعظم او الضخامة
والصغر . . الخ .

او من ناحية الهيئة : كالطول والقصر . . الخ .

او من ناحية الشدة : كالبيس والليونة والشدة
والرخاوة .

او من ناحية الكثرة والقلة .

او من ناحية التضاد كالبياض والسواد .

او من ناحية السعة كالخلاء والامتلاء .

او من ناحية اللون او النمو او الصوت . . الخ .

ولم يلفت شئ من ملاحظتهم ما وقع تحتها كما ان
ملاحظتهم للظواهر لم تكن سطحية او عابرة تكتفى
بتوصف الشئ فى عمومته وجملته .

ونضرب لذلك مثلا باحدى الظواهر الحسية وهى :
تفصيل كمية المياه وكيفيتها .

إذا كان الماء دائما لا ينقطع ولا ينزح في عين
 أو بشر فهو عِدَّ .
 فإذا كان إذا حرك منه جانب لم يضطرب جانبه
 الآخر فهو كُرَّ .
 فإذا كان كثيرا عذبا فهو عَدَق وقد نطق به القرآن .
 فإذا كان مغرقا فهو قَمَر .
 فإذا كان تحت الأرض فهو غَوْر .
 فإذا كان جاريا فهو غِيل .
 فإذا كان على ظهر الأرض يسقى بغير آلة من دالية
 أو دولا ب أو ناعورة أو منجّتون فهو سِيح .
 فإذا كان ظاهرا جاريا على وجه الأرض فهو معين
 وسِيم وفي الحديث (خير الماء السِيم) .
 فإذا كان جاريا بين الشجر فهو غل .
 فإذا كان مستنقعا في حفرة أو نقرة فهو ثَقَب .
 فإذا نبط من ثمر البئر فهو نَبَط .
 فإذا غادر السيل منه قطعة فهو غَدِير .
 فإذا كان إلى الكعبين أو إلى انصاف السُّوق فهو
 ضَحْضاح .
 فإذا كان قريب القعر فهو ضَحْل .
 فإذا كان قليلا فهو ضهل .
 فإذا كان أقل من ذلك فهو وَثَل .
 فإذا كان خالصا لا يخالطه شيء فهو قراح .
 فإذا وقعت فيه الأمشة حتى كان يتدفق فهو سِيم .
 فإذا خاضته الدواب فككرته فهو طَرَق .
 فإذا كان متفيرا فهو سَجِس .
 فإذا كان نثنا غير أنه شروب فهو آجِن .
 فإذا كان لا يشربه أحد من نثنه فهو آسِن .
 فإذا كان باردا منتنا فهو غَسَاق (بتشديد السين
 وتخفيفها) ، وقد نطق به القرآن .
 فإذا كان حارا فهو سُخْن .
 فإذا كان شديد الحرارة فهو حَمِيم .
 فإذا كان مُسَخَّنًا فهو مُوعَز .
 فإذا كان بين الحار والبارد فهو فَايَر .

فإذا كان باردا فهو قار .
 ثم خَصَر .
 ثم شِيم .
 ثم شُنَان .
 فإذا كان جامدا فهو قارس .
 فإذا كان سائلا فهو شرب .
 فإذا كان طريا فهو غريض .
 فإذا كان ملحا فهو زُعَاق .
 فإذا اشتدّت ملوحته فهو جُرَاق .
 فإذا كان مُرا فهو قُعَاع .
 فإذا اجتمعت فيه الملوحة والمرارة فهو أجاج .
 فإذا كان فيه شيء من العذوبة وقد يشربه الناس
 على ما فيه فهو شَرِيب .
 فإذا كان دونه في العذوبة وليس يشربه الناس
 إلا عند الضرورة وقد تشربه البهائم فهو شَرُوب .
 فإذا كان عذبا فهو فَرَات .
 فإذا زادت عذوبته فهو نُقَاح .
 فإذا كان زاكيا في الماشية فهو نَمِير .
 فإذا كان سهلا سائفا متسلسلا في الحلق من طيبه
 فهو سلسل وسلسال .
 فإذا كان يمس الغلة فيشفيها فهو مَسُوس .
 فإذا جمع الصفاء والعذوبة والبرد فهو زلال .
 فإذا أكثر عليه الناس حتى نزحوه بشفاهم فهو
 مَشْفُوه ثم مَشْوَد به ثم مَضْفُوف . ثم مَكْوك ثم مَجْجُوم
 ثم مَنَقُوص وهذا عن أبي عمر الشيباني (2) .
 أمثلة لبعض الظواهر المعنوية :
 رجل مُعْجِب .
 ثم تَائِه .
 ثم مَزْهُو من وَمَنَحُو من الزهو والنخوة .
 ثم باذخ من البَذَخ .
 ثم أَصِيد إذا كان لا يلتفت يمنة ويسرة من كبره .
 ثم مُتَغَطَّر إذا تشبه بالغطرفة كثيرا .
 ثم مُتَغَطَّرَس إذا زاد على ذلك (3)

(2) فقه اللغة للثعالبي ص 289 : 129

(3) نفس المصدر السابق ص 154

المبوس :

- اذا روى ما بين عينيه فهو قاطب وعابس .
- فاذا كثر عن اتيلبه مع المبوس فهو كالح .
- فاذا زاد عبوسه فهو ياسر ومكهر .
- فاذا كان عبوسه من الهم فهو ساهم .
- فاذا كان عبوسه من الفيظ وكان مع ذلك منتفخا فهو مبرطم عن الليث عن الاصمعي (4) .

كيفية النظر وهيئته في اختلاف احواله :

- اذا نظر الانسان الى الشيء بجامع عينه قيل رَمَقَه
- فان نظر اليه من جانب اذنه قيل لَحَظَه .
- فان نظر اليه بعجلة قيل لَمَحَه .
- فان رماه ببصره مع حدة نظر قيل حدجه بطرفه
- وفي حديث ابن سعود رضى الله عنه حدث القوم ما حدجوك بابصارهم .
- فان نظر اليه بشدة وحدة قيل ارشقه وأسف
- النظر اليه وفي حديث الشعب انه كره ان يُسِف الرجل نظره الى امه واخته وابنته .
- فان نظر اليه نظر المعجب منه او الكاره له او المبغض إياه قيل : شَفَقَه وشَفَن اليه شَفُونَا وشَفْنَا .
- فان اعاره لحظ العداوة قيل نظر اليه شَزَرَا .
- فان نظر اليه بعين الحبة قيل نظر اليه نظرة ذى علق .

- فان نظر اليه واضعا يده على حاجبيه مستظلا بها من الشمس ليستبين المنظور اليه قيل استكفه واستوضحه واستشرفه .
- فان نشر الثوب ورفع له لينظر الى صفاقته وسخافته او يرى عوارا ان كان به قيل استشقه .

- فان نظر الى الشيء كاللمحة ثم خفى عنه قيل لاحه لوحة كما قال الشاعر : وهل تنفعنى لوحة لو الوحها
- فان نظر الى جميع ما في المكان حتى يعرفه قيل نفسه نقضا .

فان نظر في كتاب او حساب ليهذهبه او ليستكشف صحته وسقمه قيل تصفحه :

- فان فتح جميع عينيه لشدة النظر قيل حدق .
- فان لالهما قيل ترق عَيْنِيَه
- فان انقلب حملان عينيه قيل حلق .
- فان غاب سواد عينيه من الفزع قيل ترق بصره .
- فان فتح عين مغزوع او مهدد قيل ججع .
- فان بالغ في فتحها وأخذ النظر عند الخوف قيل حدج ونزع .

فان كسر عينه في النظر قيل دنقس وطرفس من ابن عمرو فان فتح عينيه وجعل لا يطرف قيل شخص وفي القرآن شاخصة ابصارهم .

- فان ادام النظر مع شكون قيل اسجد عن ابن عمرو ايضا (5)
- فان نظر الى افق الهلال لليلته ليراه قيل : تبصره
- فان اتبع الشيء بصره قيل اثاره بصره (5) .

* * *

يلاحظ على هذه الظواهر انها تتبع في طريق الملاحظة والاستقصاء والرصد والتسجيل خطوات المنهج العلمى التجريبي الحديث ولهذا كما نعتقد دلالة علمية خطيرة لانها تضعنا امام عقلية علمية تجريبية نضجت فيها الى حد كبير ملكات عقلية متعددة من قوة الادراك وشموله وسعته ومن سعة الخيال وتنوعه ومن عمق الملاحظة ودقتها ونفاذها ومن القدرة على الترتيب والتنسيق والتوصيف والتبويب .

هذا على الرغم من ان علماء اللغة يهتموا بالقيمة العلمية لهذه المادة وانما اهتموا بقيمتها اللغوية ولو انهم التفتوا الى القيمة العلمية التى التفت اليها الجاحظ في كتابه الحيوان لوصل اليها علم كثير ودقيق في مجال الظواهر التى وقعت تحت ملاحظتهم .

وابلغ دليل على ما نقول هو ذلك المرجع النفيس في علم الحيوان الذى بذل فيه الجاحظ جهده واستوعب فيه جل المادة المعروفة في عصره في هذا الباب مما نقل عن اليونان وغيرهم بالاضافة الى المادة العربية وفي هذا يقول الجاحظ وهو حجة في هذا الباب تحت عنوان

(4) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

(5) فقه اللغة 113 - 114 .

معرفة العرب والاعراب بالحيوان : وقل معنى سمعناه
في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقرائنه في كتب
الاطباء والمتكلمين الا ونحن قد وجدناه او قريبا منه
في اسفار العرب والاعراب وفي معرفة اهل لغتنا وملتنا

ولولا ان يطول الكتاب لذكرت ذلك اجمع . وعلى
انى قد تركت تفسير اشعار كثيرة وشواهد عديدة مما
لا يعرفه الا الراوية التحرير من خوف التطويل (6) .

وهذا الذى نراه يحملنا على ان نلفت النظر الى
انه اذا تأكد فضل العرب على الحضارة الغربية واذا
تأكد ان العرب هم الذين احيوا واسهموا في ارساء
قواعد المنهج العلمى التجريبي والتطبيقي وذلك ما
تناوله علماء ومؤرخون غربيون بالحديث والحراسة
فان ذلك لا يجوز ان يرد فقط الى الحضارة العربية
الاسلامية التى نضجت في ظلها العلوم التجريبية على

ايدى علمائها المشهورين من امثال الحسن بن الهيثم
وجابر بن حيان والرازي وابن سينا والبيروني
والادريسي . وغيرهم وانما يجب ان يرجع به الى
ما قبل الاسلام حيث وضع الاساس التجريبي وتكونت
العقلية التجريبية واذا كان التجريب قبل الاسلام
لم يأخذ طابعا معمليا ولم يرق على اساس وضع النظريات
وانشاء الفروض والتأسيس عليها واستخلاص النتائج
العلمية فان ذلك لا يمكن ان يقلل من قيمة المرحلة السابقة
على الاسلام لانها المرحلة التى اختبرت ونضجت فيها
الملكات العقلية الاساسية اللازمة لهذا النوع
من الدراسة والتى استطاعت حين اتاحت لها الفرصة
في ظل الحضارة الاسلامية وبعد ترجمة العلوم ان تؤتى
اكلها في صورة النظريات العلمية والمدارس المعملية
التي ازدهرت بها جوانب كثيرة من جوانب المعرفة
التطبيقية في الكيمياء والبصريات والهندسة والطب
والجغرافيا والفلك . . الخ على ايدى العلماء المسلمين.